إهداء الكتاب

إلى مَن كانت حياته للأمة بَعْثًا وطنيًّا. من كان لي أبًا روحيًّا، وسأبقى له تلميذًا وفيًّا. مَن علمني أن الحياة بغير المثل العليا عرض زائل، وعبث ضائع. إلى «مصطفى كامل» أهدي كتاب مصطفى كامل هدية الوفاء إلى روحه العظيمة.

يناير سنة ١٩٣٩م

عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الخامسة

نحمدك يا رب؛ إذ الطبعة الخامسة من كتاب «مصطفى كامل» بين يدي القارئ، وهي مطابقة تمامًا للطبعة الرابعة التي ظهرت سنة (١٩٦٢م). والله ولي التوفيق.

سنة ١٩٨٤م

كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب «مصطفى كامل» سنة ١٩٣٩م، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٥م، واليوم تظهر الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠م.

لئن كان «مصطفى كامل» قد انتقلت روحه الطاهر إلى الرفيق الأعلى سنة (١٩٠٨م)، فإن تاريخه لا يقف عند هذه السنة؛ بل إنه مستمر إلى اليوم وإلى غد وإلى ما شاء الله، وإذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعباقرة؛ بل إن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلودًا، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان، وهم بناة الإنسانية ودعائمها، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الإنسانية تجدد من ذكراهم، فهم لا يزالون أحياء في كل عصر وفي كل عام. وإذا كان مصطفى كامل قد فارق هذه الدنيا منذ اثنتين وأربعين سنة، فإن دعوة الجلاء التي كانت أساس رسالته الوطنية، والتي دعا إليها منذ ستين سنة، وناضل من أجلها، وفني في سبيلها، قد استقرت في النفوس، وصارت مع الزمن عقيدة الأمة وموضع الإجماع من المواطنين جميعًا، وصارت علم الجهاد وقوامه، في شمال الوادي وجنوبه، وهذا هو الخلود الذي يجعل مصطفى كامل حيًّا في نفوسنا، وكأنه لا يزال بيننا.

لم تكن الدعوة إلى الجلاء أمرًا ميسورًا في العصر الذي نشأ فيه مصطفى كامل، فلقد ظهرت دعوته سنة (١٨٩٠م) في وقت خيَّم اليأس فيه على نفوس المصريين؛ فبدت غير معقولة ولا مقبولة، وعدَّها الناس وهمًا من الأوهام أو حُلمًا من الأحلام، ولكن مصطفى كامل كان مؤمنًا برسالته، فنهض بها، وشقَّ لها طريقها وسط العقبات والعراقيل، والآن شهدت البلاد منذ وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها سنة (١٩٤٥م) استقرارًا لهذه الدعوة وإيمانًا بها في نفوس سكان الوادي، فصارت شعارهم، وصارت عقيدتهم، واحتلت مكان الصدارة في أهداف البلاد

الوطنية؛ فإيمان الأمة برسالة مصطفى كامل هو بعث وإحياء لتاريخه، وهو استمرار لهذا التاريخ.

والطبعة الثالثة من هذا الكتاب تزيد على الطبعة الأولى بما جاء فيها عن إزاحة الستار عن تمثال الفقيد سنة (١٩٤٠م)، وقد وردت هذه الزيادة في الطبعة الثانية. ثم إقامة الضريح الجديد لمصطفى كامل وفريد، وهي زيادة جديدة؛ إذ تم في العام الماضي (١٩٤٩) تشييد الضريح الجديد، وصدر قرار الحكومة بنقل رفات المرحوم محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين، والصديقين الوفيين، أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبر واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفًا وأربعين سنة.

والله أسأل أن يجعل لنا من حقائق التاريخ ما يزيدنا علمًا وبصيرة وإيمانًا.

إبريل سنة ١٩٥٠م

عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة (١٩٣٩م)، وها هي الطبعة الثانية بين أيدي القارئين والقارئات.

ليس تاريخ العظماء مجرد سرد وقائع لحياتهم وأعمالهم؛ بل أهم من ذلك أن تبرز فيه صورة واضحة لمبادئهم التي نشروها، والرسالة التي أدوها، وبذلك يكون تاريخهم مرآة لهذه الرسالة وهاتيك المبادئ.

إن رسالة مصطفى كامل التي تخلد على الزمن هي رسالة الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان؛ الاستقلال الذي لا يتحقق إلا بجلاء كل قوة أجنبية عن البلاد، فالجلاء في نظر مصطفى كامل هو الرمز الصحيح للاستقلال الصحيح، هو جوهر الاستقلال ومعناه، وهو أساسه ومبناه، ولذلك جاهد الاحتلال الأجنبي طول حياته، ودعا قومه إلى مجاهدته وعدم الاعتراف به، وعدم التعاون وإياه، وكان ينادي طول حياته أن «كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه»، ذلك هو شعاره، وتلك هي رسالته، لم يقبل فيها هوادة، ولم يتراجع أمام العقبات أو المغريات، وهذا هو السر في نجاحها واستمرارها من بعده؛ لأنها الرسالة الطبيعية لكل شعب يفهم معنى الاستقلال ويتمسك به ويناضل من أجله، ولا يرضى عنه بديلًا؛ وفي ذلك يقول رحمه الله في محاجة خصومه سنة (١٩٠٠م): «يمكنني اليوم أن أقول أمام الملأ كله أنه لا يستطيع إنسان أن يدعي أني خالفت مبدأ من مبادئي لحظة واحدة مع تغير الظروف وتلقبات الأحوال، وموت الآمال عند كثير من الرجال، ولا يوجد من يقول أني عملتُ طمعًا في عز أو ثروة؛ لأن الطامع فيها لا يقف موقفي ولا يجاهد ضد الاحتلال».

إن رسالة مصطفى كامل يجب أن تبقى، وعلينا أن نحافظ عليها، علينا أن لا نقبل التعاون مع الاحتلال ما بقي الاحتلال في هذه البلاد -مصر والسودان- تحت

أي شكل وبأي اسم كان. ولقد بقيت هذه الرسالة ما بقي خلفاؤه يحملونها ويناضلون عنها، وفي ذلك يقول «محمد فريد» -رمز الإخلاص والتضحية- حين عرض عليه الاشتراك في الوزارة سنة (١٩١٠م): «كيف تطلب مني الاشتراك في حكم البلاد وأنا أجاهد الاحتلال؟! وكيف يتفق النقيضان؟!».

ظلت هذه الرسالة قائمة في عهد الاحتلال، وفي عهد الحماية، ثم في ظل معاهدة (٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦م) التي رفضها الحزب الوطني، وما كان له أن يقبلها أو يقرها، وهي تناقض رسالته التي حملها في مختلف العهود، وما كان لهذه الرسالة أن تتغير أو تتبدل، سواء بعد إعلان الاستقلال الاسمي في (١٥ مايو سنة ١٩٢٢م)، أو بعد إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦م، فإن الاحتلال الأجنبي قد بقي قائمًا في ظلهما.

بقيت هذه الرسالة سليمة وبرزت واضحة جلية في سياسة الحزب الوطني وموقفه إلى بضع سنوات مضت، وفي ذلك قال الأستاذ مصطفى الشوربجي بك في خطبته التي ألقاها باسم الحزب الوطني سنة (١٩٢٣م) في إحدى الأزمات الوزارية: «تريدون أن تسمعوا كلمة الحزب الوطني في الوزارتين الماضية والحاضرة، إنها كلمة مختصرة، فنحن نرى أن كل وزارة تتألف في عهد الاحتلال لا تستطيع أن تفيد الأمة بقدر فائدتها للسياسة الإنجليزية؛ بل إن أية وزارة تتألف في هذا الجو لا يمكن لها أن تقدم للبلاد إلا فائدة ظاهرية».

وعندما ائتلف الحزب الوطني مع الأحزاب السياسية لإعادة الحياة الدستورية وعادت سنة (١٩٢٦م) بفضل دعوت وجهاده مع الأحزاب المؤتلفة، امتنع عن الاشتراك في الوزارة التي تألفت في أعقاب الانتخابات لقيامها على أوضاع سياسية تخالف مبادئه، وفي ذلك أعلن (اللواء المصري) -لسان حال الحزب الوطني وقتئذ- «أنَّ الحزب الوطني لم يكن في أي وقت من الأوقات سواء قبل الحرب أو بعد الحرب يرمي إلى تملك ناصية الحكم، وهو زاهد في هذا الأمر ما دام الاحتلال قائمًا في البلاد؛ لأنه على يقين بأن حكومة ما لا تستطيع أن تخدم الأمة خدمة صادقة نافعة في حرية

واختيار، وإلا اصطدمت به صدمة تكشف عن ضعف غالبية البلاد، وهنا تكون الطامة الكبرى، سواء كان الموقف شريفًا بترك الحكم أو ذليلًا بالرضوخ والعدول عن خدمة البلاد إلا وفق مرامي الغاصب». وأيد الأستاذ «حافظ رمضان باشا» هذا المعنى في حديثه بجريدة «الأنفور ما سيون» إذ سأله محدثه: «هل يمكنكم أن تحدثوني عن موقف الحزب الوطني إزاء تطور الأزمة الحاضرة، وهل تقبلون الدخول في وزارة؟». فأجابه على الفور: «يمكنني أن أصرح لك في غير مواربة أن الحزب الوطني الذي أتشرف برآسته بعد كبار الرجال الذين ذاع صيتهم ليس له مطمع وزاري في النظام الحاضر، إن برنامجنا واضح جدًّا، وهو يفرض علينا خطة صريحة جلية، ولكن في انتظار حوادث جديدة تنشئ لنا أمرًا جديدًا، قد رأينا أن لا نضع أية عقبه في سبيل وزارة تعمل على إعادة الحياة الدستورية وتبذل الجهد في إدارة أعمال البلاد في طريق الرقي، فالحزب الوطني هو وطني قبل أن يكون سياسيًّا».

ولم يتبدل أساس الوضع السياسي القائم في البلاد بعد إبرام معاهدة (٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦م)، بل إن هذه المعاهدة قد أقرت ما أقرت من أوضاع نهض الحزب الوطني لمقاومتها على تعاقب السنين، وأخصها الاحتلال الأجنبي وفصم عرى الوحدة بين مصر والسودان.

وما كان للحزب الوطني وقد ارتبط ماضيه ووجوده بمقاومة هذه الأوضاع التي تناقض الاستقلال الصحيح أن ينفصل عن ماضيه لمجرد إبرام معاهدة رفضها وأنكرها استمساكًا بمبادئه؛ ولكن فريقًا من أعضائه قد سلكوا منذ بضع سنوات طريقًا يتعارض مع هذا الماضي المجيد، فوافقوا على اشتراك الحزب في الوزارة في ظل هذه المعاهدة وعلى أساس تنفيذها «بروح الود والإخلاص»، وبذلك أقروا التعاون الودي مع الاحتلال الأجنبي، ولم يكن التعاون مع الاحتلال مبدأ ولا

شعارًا لحزب الجلاء، وليس هو التراث الوطني الذي خلفه لنا مصطفى كامل ومحمد فريد.

ولعل في كتاب «مصطفى كامل» ما يبصرنا برسالة «مصطفى كامل» ويحييها في نفوسنا، ويجلوها على وجهها الصحيح، فنعرف منها كيف يكون الجهاد الخالص لله والوطن. والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل.

يناير سنة ١٩٤٥م

عبد الرحمن الرافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب الذ اعتزمتُ وضعه عن «مصطفى كامل» منذ سنوات عدة، وقد تأخرت في إخراجه عن الموعد الذي كنت قدرته؛ لأنني إذ بدأت في كتابة فصوله الأولى استوقفني البحث في مبدأ ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديثة، فبدا لي أن أرجع إلى الأدوار التي سبقت عهد مصطفى كامل؛ لكي أقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية، فانتهى بي البحث إلى اعتبار المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر أول دور من أدوارها، ومن ثم اتجهت نيتي إلى دراسة تلك الأدوار على التعاقب، قبل الكتابة عن مصطفى كامل، فانتظرت حتى أتممت المجلدات السبعة التي وضعتها في تاريخ الحركة القومية وأدوارها، من عهد ظهورها في إبان الحملة الفرنسية، وتطورها بعد انتهاء تلك الحملة، إلى اكتمالها في عصر محمد علي، ثم تجددها في عهد سعيد وإسماعيل، إلى الثورة العرابية، ثم الانحلال الوطني العام في السنوات الأولى للاحتلال.

واليوم أكتب عن «مصطفى كامل» باعث الحركة الوطنية الحديثة، وغرضي من دراسة تاريخه أن أطالع الجيل بصفحة من الجهاد القومي، تصل حاضرنا بماضينا، وتنير لنا السبيل في جهادنا الحالي، وجهادنا في المستقبل، أريد بدراسة هذه الصفحة من تاريخنا القومي أن أدون وقائعها، وأسجل حقائقها؛ لأن حوادث التاريخ وأعمال الرجال إذا انقضت عليها السنون ولم يسجلها القلم، يخشى أن يجر عليها الزمان ذيول الإهمال والنسيان.

ومَن أراد أن يعرف فضل مصطفى كامل على الحركة الوطنية ويستخلص من تاريخه صورة عامة لشخصيته، فليرجع ببصره إلى العصر الذي ظهر فيه؛ فلقد ظهر سنة (١٨٩٠م) على حين فترة من الحركة الوطنية، وهجهة من الكفاح القومي،

وانحلال في الروح المعنوية، ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط، على إثر إخفاق الثورة العرابية واحتلال إنجلترا مصر سنة (١٨٨٢م). ظهر حين خيَّم على البلاد جو من الخضوع والاستسلام، بقي مضروبًا عليها نحو عشر سنوات، فنهض يدعو إلى الحرية والاستقلال، في وقت تحالفت فيه عوامل اليأس، وتضافرت أسباب الجمود والضعف، دعا دعوته، فبدأت غريبة عن الأذهان، بعيدة عن الأفهام، وتساءل معاصروه: كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذًا وأوسعها سلطانًا؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من العوامل المثبطة، فأخذ يثابر على دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأمة لندائه، فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعورًا وكان جهادًا، كانت رسالته إلى مصر كصرخة الحياة المدوية في سكون النوم العميق، كانت رسالة الأمل بعد اليأس، والحياة بعد الخمود، والكرامة بعد الهوان، والجهاد للحرية والاستقلال بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد، وإذا كانت الدعوة الوطنية التي دعا إليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عامًا من جهاده طبيعية محببة إلى النفوس، فإن الطريق إليها كان شائكًا، ولقد كانت في حاجة إلى إقدامه، وعبقريته وإيمانه، فهي كحادث اكتشاف القارة الأمريكية، ظهر طبيعيًّا ومعقولًا بعد تمام الاكتشاف؛ ولكنه كان في حاجة إلى إقدام «كريستوف كولومب» وعبقريته.

ولد مصطفى كامل سنة (١٨٧٤)، وظهرت وطنيته أول ما ظهرت سنة (١٨٩٠م) حين كان لا يزال طالبًا بالمدرسة الثانوية؛ إذ شعر بهاتف الوطنية يهتف بين جنبيه، يناديه بأن عليه واجبًا نحو مصر يجب أن يؤديه، ويدعوه إلى الجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وعرف فيه علي باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ أنه الشاب الذي سيكون له شأن كبير، فقال له: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن سيكون عظيمًا، وقد تحققت نبوءته، فصار الفقيد عظيمًا بوطنيته وجهاده. ثم دخل مدرسة الحقوق سنة (١٨٩١م)، واختارها «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد» كما قال في كتاب له إلى شقيقه «علي فهمي كامل

(بك)» في ١٢ يولية سنة ١٨٩١م. دخلها لكي يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية. وقد راسل الصحف وهو بعد طالب، وأنشأ مجلة (المدرسة) سنة (١٨٩٣م) وهو طالب، واتخذ شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك). فالوطنية كانت عقيدته وشعاره وهو في تلك السن المبكرة، نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم، أو يقتبسها من العصر الذي ظهر فيه، لم تكن نتيجة درس أو تعليم؛ بل كانت وحي الإلهام والعبقرية. ثم نال شهادة الحقوق سنة (١٨٩٤م)، فلم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب في الحكومة، أو الانتظام في سلك المحاماة، بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة، والعمل لاستقلالها وحريتها وكرامتها، وقد صدق وعده؛ إذ كانت سنو حياته وقفًا على الجهاد، فكان لا يفتأ يعمل، ويكتب، ويخطب، ويؤلف، ويجوب البلاد متنقلًا، رافعا صوت مصر في الداخل والخارج، ينادي بحريتها واستقلالها، مستحثًّا مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهاد والأمل حتى تفتحت الأذهان على توالي السنين إلى قبول دعوته. ثم جاءت سنة (١٨٩٨م) ووقعت فيها حادثة فاشودة، فصُدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذي أحياه مصطفى في النفوس. بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وإنجلترا على المسألة المصرية، وكان الظن أنها تنتهي بجلاء الإنجليز عن مصر، ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا، ورسوخ أقدام الاحتلال في وادي النيل، وأعقبها إبرام اتفاق السودان بين مصر وإنجلترا في (١٩ يناير سنة ١٨٩٩م)، ذلك الاتفاق الذي قضى على مركز مصر في السودان؛ فيئس المصريون، وانصرفت نفوسهم وقتًا ما عن الاستماع إلى النداء الوطني؛ ولكن مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع، بل استمر ماضيًا في جهاده، وعوَّل من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا، وفقد أمله في عدالة أوربا عامة، منذ رأى جمودها أمام مأساة (البوير) سنة (١٩٠٠م) وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية دون أن تأبه لهم، فدعا الأمة إلى الاعتماد على النفس، ومتابعة الجهاد، وكان هو المثل الأعلى في الثبات والمثابرة، والشجاعة والإقدام، وأنشأ «اللواء» سنة (١٩٠٠م)، فكان مدرسة تعلم المصريين حقوقهم

وواجباتهم، وثبت فيهم روح الوطنية الصادقة والأخلاق الفاضلة. واستمر يناضل عن مصر على صفحات اللواء، وفوق أعواد المنابر، وفي صحف أوربا وأمريكا، إلى أن جاءت سنة (١٩٠٤م) فصُدمت الحركة الوطنية صدمة جديدة؛ إذ أبرم العهد المعروف «بالاتفاق الودي» بين فرنسا وإنجلترا، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الإنجليزي في مصر، وتعهدت بألا تعرقل عمل إنجلترا فيها، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر في نفوس كبراء مصر وعظمائها، ورجالها المعدودين، ورأى أكثرهم أن الخير لهم في مسالمة الاحتلال والانضواء تحت لوائه، واكتساب رضاه، ولكن مصطفى كامل خالفهم واستمر في طريقه يحمل علم الجهاد، لا ينيِ ولا ينثني، مناديًا بالجلاء، وتجلت وطنيته في روعتها حين عظمت هموم الوطن، وقلَّ المعين والناصر، فقد ضاعف جهوده، وصمد للعقبات والعراقيل، يتغلب عليها بقوة العزيمة والإيمان، وبتأثير دعوته ووطنتيه ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحقة، وحب الحرية والاستقلال، ودرجوا على الأمل والحياة، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة، وأهمها تأسيس نادي المدارس العليا سنة (١٩٠٦م)، إذ اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة وتشبعت بتعليم الفقيد ومبادئه، متعاهدة على الإخلاص في خدمة الوطن. وبذلك سرت روحه إلى الطبقة المثقفة من الأمة، ثم كانت «حادثة دنشواي» في يونية سنة (١٩٠٦م)، فحمل فيها الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة، وجاءت محققة لصدق نظره في أن لا حياة للأمة ولا كرامة لها بغير الاستقلال، ومنها انتشرت تعاليمه ومبادئه حتى سرت إلى طبقات الشعب كافة، وضاعف الفقيد جهاده، وظل يخطب ويكتب ويعمل في أوربا وفي مصر داعيًا إلى الاستقلال، وأنشأ سنة (١٩٠٧م) جريدتين يوميتين؛ إحداهما بالفرنسية (ليتندار إجبسيان) وأخرى بالإنجليزية (ذي إجبشيان استاندارد) تدافعان عن حقوق مصر في العالم الأوربي، إلى جانب (اللواء) في العالم الشرقي. وهكذا كان الفقيد يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة للدفاع عن مصر، وهي مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات،

وقد تأثرت صحته من هذه الجهود المضنية المتواصلة، وشعر بدبيب المرض في سنة (١٩٠٦م)، حيث كان بباريس صحبة صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد، لاختيار محرري جريدتي (ليتندار إجبسيان) و(ذي إجبشيان استاندارد)، وهناك عاده طبيب عالمي مشهور، وبعد أن فحص عن مرضه نصحه بحضور فريد بك أن يترفق بصحته ولا يحملها فوق طاقتها؛ ولكنه لم يسمع لنصح الناصحين، وسارع الخطى في تنفيذ مهمته، لكي يتمم رسالته قبل أن يدركه الأجل، فكانت سنوات ١٩٠٦ و١٩٠٧م وأوائل سنة ١٩٠٨م حافلة بعظائم الأعمال. وما زال يجاهد ويناضل حتى ذوت زهرة شبابه في (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م) وهو في الرابعة والثلاثين من عمره.

إنَّ الثماني عشرة سنة التي قضاها الفقيد في الجهاد هي أساس الحركة الوطنية الحديثة، فهو باعثها ومحييها، وبانيها وسط الشدائد والعقبات، ومدعمها بالإيمان والشجاعة والثبات، ومغذيها بالإخلاص والتضحية. مات في ميدان الجهاد كقائد الجيش في ساحة الوغى، يرى الخطر محدقًا به فلا يكترث له، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد في سبيل الواجب، أو كما قال فريد بك: «مات رئيسنا في ساحة الوغى كالقائد يعاني سكرات الموت ويده تشير إلى جنده بالتقدم إلى الأمام».

فالروح التي بعثها مصطفى كامل في الأمة هي التي صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية، وهي التي مهدت السبيل لثورة (١٩١٩م) التي اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية؛ وهم في ذلك مخطئون، لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين؛ بل هي حوادث اجتماعية تتمخض عنها حياة الشعوب تبعًا لدرجة استعدادها، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها، فلولا الوطنية التي بثَّها مصطفى كامل في نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عامًا التي قضاها في الكفاح، لمرت سنة (١٩١٩) كما تمر غيرها من السنين، دون أن تتجلى فيها روح الثورة، فالثورة هي غرس الوطنية، والوطنية هي نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين. ولهذه الصفحة من الجهاد قد

خصصت هذا الكتاب، فاليوم أؤرخ «مصطفى كامل» وغدًا بمشيئة الله سأؤرخ «محمد فريد»، وبذلك أكون قد أديت واجبي نحو عباقرة الوطنية الذين رسموا للأمة طريق الجهاد الخالص لله والوطن.

أقسام الكتاب

أفردت الفصل الأول من الكتاب لدراسة نشأة الفقيد والعصر الذي ظهر فيه، وتناولت الكلام عن نشأته العائلية والمدرسية، ثم الأخلاقية والوطنية، يليه الفصل الثاني؛ وفيه بيان المرحلة الأولى من جهاده في عهد التلمذة، والفصل الثالث عن المرحلة الثانية، بعد حصوله على شهادة الحقوق، ثم الفصول الثلاثة التالية عن جهاده من (سنة ١٨٩٤م حتى سنة ١٨٩٧م)، والفصل السابع عن حادثة فاشودة وجهاده سنة (١٨٩٨م)، والذي يليه عن جهاده عام (١٨٩٩م)، يتبع ذلك الكلام عن ظهور اللواء سنة (١٩٠٠م) والجهاد الأكبر، ثم الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي سنة (١٩٠٤) وأثره في الحركة الوطنية، وموقف الفقيد منه، ومضاعفة جهوده بإزائه، ثم تأسيس نادي المدارس العليا، ثم حادثة دنشواي واستقالة اللورد كرومر، فظهور جريدتي ليتندار إجبسيان وذي إجبشيان استاندرد. يلي ذلك تأسيس الحزب الوطني، وخطبة الفقيد الكبرى بالإسكندرية، يليه الفصل الخامس عشر عن وفاة الزعيم وجنازته، ومراثي الشعراء والكتاب فيه، ثم الفصل السادس عشر عن الخديوي عباس الثاني وتاريخ مصر السياسي في عهده، يلي ذلك فصول تحليلية عن مصطفى كامل والخديوي، ومصطفى كامل وتركيا، ثم مجلس شورى القوانين، ثم مصطفى كامل ومعاصريه، يليه الفصل الحادي والعشرون وفيه دراسة لشخصية الزعيم وصفاته وأخلاقه ومقدرته السياسية والخطابية والصحفية، وتضحياته في الجهاد، وفضله في بعث الحركة القومية وتأسيس الوحدة الوطنية، ثم الفصل الأخير (الثاني والعشرون) وفيه نماذج من حياته الخطابية، وبه ختام الكتاب.

إنَّ الحديث عن مصطفى كامل يتجدد كلما تعاقبت الحوادث وكرت الأعوام؛ إذ من الحق علينا للزعماء الراحلين أن نذكر على الدوام فضلهم ولا ننساهم، فالوفاء ركن من أركان الوطنية؛ بل هو ركن الفضائل وقوامها، والأمم الحية هي التي تعرف أقدار بنيها الذين أفنوا حياتهم في سبيل مجدها وعظمتها، وإني بإخراج هذا الكتاب

لا أنشد الوفاء فحسب؛ بل أقصد المساهمة العملية في النهضة القومية؛ لأنه مهما تعددت نواحي النهضة وسبلها، فمن الواجب لكي تؤتي ثمرها أن ترتكز على أساس ثابت من الروح الوطنية العامة التي تضع مصالح الوطن فوق المطامع الشخصية والمنافع الذاتية، وليس أدعى إلى بث هذه الروح في النفوس من الرجوع إلى تاريخ الزعماء والمجاهدين الذين كانت حياتهم رمزًا للإخلاص والتضحية، فمن ذكرياتهم نستروح نسيم الوطنية الصادقة، وستبقى سيرهم على مر الزمان مثالًا يُقتدى به في العمل لإحياء الوطن، هذا ما أنشد وإليه أقصد، {إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}.

يناير سنة ١٩٣٩م

عبد الرحمن الرافعي